الفصل الخامس

محور العلاقة مع الآخر

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

المسلمون، مجتمعًا ودولة، لا يعيشون فى جزيرة معزولة، بل يتواصلون مع غيرهم من أصحاب الملل فى إطار نظام للعلاقات يسودها السلام أحيانًا والعداء أحيانًا أخرى. ومنذ بدايات تكون المجتمع المسلم وفى عهد أول دولة له طرح سؤال هام حول العلاقة بالآخر هل تقوم هذه العلاقة على التعايش والسلام أم إن الحرب وحالة العداء هى ما يحكم هذه العلاقة؟

لقد بدأت علاقة المسلمين بغيرهم فى ظل دولتهم التى بدأت فى المدينة المنورة وظلت تتوسع وتتمدد وتتصاعد قدراتها العسكرية والثقافية، حتى أصبحت لها الغلبة والهيمنة على العالم لمدة تقارب العشرة قرون.

خلال هذه الفترة نشأت وتطورت المدارس الفقهية التى نظرت إلى العلاقة بالآخر على خلفية تفوق الدولة الإسلامية، مع افتراض حالة الحرب الدائمة مع غيرها من الدول، فقسم الفقهاء العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب وتتوسطهما دار العهد وهى حالة مؤقتة.

تراجعت الحضارة الإسلامية نتيجة الجمود الفكرى والاستبداد السياسى وصعود نجم الحضارة الغربية التى أظهرت تفوقًا فى المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، ثم اتجهت الدول المستظلة بظلها إلى الوحدة.

سبق هذا الاتجاه نحو الوحدة إعادة ترتيب العالم المعاصر فى شكل منظمات دولية، تأتى فى مقدمتها منظمة الأمم المتحدة، التى ضمت فى عضويتها جميع دول العالم ولكن تحت هيمنة الدول الغربية، وهى هيمنة تقوم على معاهدات واتفاقيات تنبذ الحرب وتشجع على التعاون بين جميع الدول، فى ظل هذا النظام للعلاقات الدولية، وخاصة مع واقع ظاهرة العولمة، يجد المسلمون أنفسهم أمام تحديات خطيرة: انقسامهم إلى جماعات تسيطر عليها دولة «وطنية». ضعيفة سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا،

متخلفة اقتصاديًا ومتأخرة علميا وتكنولوچيا، رغم وجود الموارد البشرية والطبيعية وعوامل أخرى ضرورية لامتلاك القوة بكل تجسيداتها. وتتمثل قمة هذه التحديات فى الخضوع للتدخلات الأجنبية واحتلاك جزء من الأرض الإسلامية، والقهر الذى تعانى منه شعوب الأمة الإسلامية.

وأمام هذه التحديات يقف المسلمون الآن فى حالة انقسام حول كيفية التعامل معها، فبرزت فى أوساطهم جماعات تحمل أفكاراً رافضة لهذا الواقع محاولة الرجوع إلى ماضى الدولة الإسلامية فى عصر القوة داعية للتمايز بين المسلمين وغيرهم ومقاومة كل ما هو غير إسلامى من الأفكار ومظاهر السلوك بل حتى منجزات غير المسلمين وإن كانت لها جدوى وفائدة للمسلمين.

نظر هؤلاء إلى الجهاد كوسيلة لتغيير ذلك الواقع، الجهاد فى مفهومه القتالى وتداخلت فى مناهجهم مفاهيم الجهاد والمقاومة والإرهاب استناداً على اجتهادات فقهية لم تراع المتغيرات التى صاحبت تحول ميزان القوى لغير صالح المسلمين.

تبرز الحاجة الآن بصورة ملحة إلى اجتهاد جديد منطلق من النصوص القرآنية ومن سيرة الرسول (متوخيًا مصلحة المسلمين ومستهدياً بنظرية المقاصد للإجابة على أسئلة تهم العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وتهم وحدة المسلمين فيما بينهم فى ظل نظام دولى أصبحت القوة فيه محتكرة بواسطة الدول الغربية. فهل يمكن أن يجد هذا الاجتهاد سنداً فى القرآن وسنة الرسول (يؤكد على قاعدة السلام ورعاية المصالح المشتركة والدخول فى عهود تدعم هذا التوجه؟ وهل بإمكان المسلمين الوصول إلى نوع من التعاون وتنسيق المواقف والسياسات تدفع بالتضامن الإسلامى فى اتجاه الغاية الكبرى، وحدة المسلمين؟ كيف يمكن للمسلمين أن يتعاملوا بإيجابية مع ظاهرة العولمة تمكنهم من الاستفادة من منجزاتها والمحافظة على خصوصيتهم فى الوقت ذاته؟ وما هو الموقف الصحيح من ظاهرة الإرهاب؟.

الجهاد

الجهاد هو بذل الوسع كله لإعلاء كلمة الله فى نفس الإنسان وفى كل دروب الحياة، فالإنسان يغالب الشر فى نفسه مجاهداً، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة مجاهداً، ويغالب الجهل والفقر والمرض مجاهدا، ويقاتل لكى لا يفتن فى دينه ودفاعًا

عن نفسه جهادا. الجهاد بهذا الفهم الواسع ليس حصة فى الحياة، إنه كل حياة المسلم، إنه رهبانية الأمة.

هنالك فهم خاطئ للجهاد القتالى فى الإسلام يوجبه لنشر الإسلام وهو الفهم الذى تعلق به بعض المستشرقين للإساءة للإسلام. الإسلام يقوم على مبدأ محكم هو لا إكراه فى الدين، وهذا المبدأ يؤسس لحرية الاعتقاد فى الإسلام.. إن الإيمان أمر اختيارى نابع من إرادة ذاتية حرة وفرض الاعتقاد الدينى بالقوة ينافى الشرع والعقل معا.

هنالك فهم آخر ضيق للجهاد، هذا الفهم الضيق يجعل الجهاد قتالاً هجوميًا بموجب آيات السيف. قال الأستاذ سيد قطب[1]: (إن فى كتاب الله سورة هى سورة التوبة تضمنت أحكامًا نهائية بين الأمة الإسلامية وسائر الأمم فى الأرض). وقبل ذلك اعتبر ابن القيم آية السيف الواردة فى سورة التوبة الآية المحكمة الناسخة لكل ماعداها.

آيات السيف هى

ـ آية ٥ سورة التوبة: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

ـ آية ٢٩ التوب: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾

ـ آية ٣٦ التوبة: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾

الآية ٥ من التوبة سبقتها آية ٤ ونصها: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ هذه الآية أعطت الأمان لأولئك الذين لم يكن اتصالهم بالمسلمين عدائيا.

وأعقبتها آية ٦ ونصها: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾

هاتان الآيتان السابقة للآية ٥ واللاحقة لها تؤكدان أن الآية الخامسة إنما تقرر حكما يسرى فى ظرف معين أى أن الآية الخامسة معنية بفئة معينة بدأت المسلمين بالعدوان وهمت بإخراجهم من ديارهم.

الآية ٢٩ المقصود بها ليس كل أهل الكتاب بل فريق منهم له شروط ذكرتها الآية.

قال صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا تفسيرا للآية: إنها تعنى قاتلوا الفريق من أهل الكتاب ـ عند وجود ما يقتضى وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان سببا لغزوة تبوك. أما الآية ٣٦ فهى بنصها نفسه لا تأمر بهجوم بل تقول ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾، مثل الآية: ﴿**فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٣].

الفيصل فى تبرير القتال واضح فى الآية ١٣ من سورة التوبة: ﴿**أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾

ومما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه أن فى القرآن مائة آية موزعة على ٤٨ سورة تأمر بالتعامل مع الآخرين بالتى هى أحسن. مثلا الآية ٨٣ من سورة الممتحنة. الإسلام هو دين ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: ١٢٥] الدعوة لله فى الإسلام بالحسنى أما القتال فهو لرد العدوان: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ [الحج: ٣٩].

إننا نلمس آثار هذا الاجتهاد فى كتب سيرة المصطفى (ﷺ). لقد تناول السيرة ما لا يقل عن ألف كتاب. ومع أن بيعة العقبة بيعة دفاعية فإن كثيرا من تلك الكتب تظهر النبى (ﷺ) غازيا مبادرا مركزا على واجبات القتال.

والحقيقة هى أن دور المغازى فى نجاح الدعوة كان متواضعا. فى حياة النبى كان القتال ما بين عام ٣هـ و٩ هـ وكان عدد المقتولين فى جميع الغزوات والسرايا:

٢٥٩ شهيدا من المسلمين.

٧٥٩ قتيلا من غير المسلمين.

١٠١٨ جملةً.

وكانت الحرب بين الطرفين سجالا ولكن حكمة النبى (ﷺ) حققت أهم ثلاثة إنجازات للدعوة دون قتال هى:

أولا: أسس الدولة فى المدينة عام الهجرة دون قتال.

ثانيا: استمال غالبية الجزيرة العربية للدعوة فى عامى صلح الحديبية.

ثالثا: فتح مكة دون قتال.

ولكن المغازى جعلت صورة النبى (ﷺ) نبيا حربيا كملوك العهد القديم.

ومن الناحية التاريخية فإن الإسلام، وقد كان نبيه عربيا وكان دعاته الأوائل عربا فى الغالب، فإنه ألهم وحرك قوميات أخرى حتى صار أهم إنجاز القوميات الفارسية والتركية والهندية فى ظل الإسلام. كما أن الإسلام استصحب حضارات الإنسانية السابقة له بصورة نادرة فى كل تاريخ الإنسانية مما جعل المستشرق البريطانى مونتجمرى واط يقول إن فى استصحاب الإسلام لحضارات العالم القديم إنجازا معجزا.

مصلحتنا فى التعايش: بالإضافة لهذه الحقائق فإن مصلحة الإسلام فى العصر الحديث تكمن فى التسامح والتعايش مع حضارات الإنسان الأخرى للأسباب الآتية:

أولا: مع أن المسلمين فى أضعف حالاتهم من الناحية السياسية فإن الدين الإسلامى ينتشر بسرعة فى كل قارات العالم بالقدوة وبالتى هى أحسن. الإسلام اليوم وفى مناخ التسامح الدينى أوسع الأديان انتشارا فى أغلب القارات.

ثانيا: علماء الاستشراق ومن لف لفهم، وقد كانوا ـ فى الغالب ـ حربا على الإسلام، بدا منهم منذ حين اتجاه جديد أكثر موضوعية فى تناول الإسلام. (ذكرنا فى المقدمة أن هنالك ردة الآن عن هذا الاتجاه بسبب أحداث ١١ سبتمبر، ولكن التيار المعتدل من المستشرقين لا زال موجودا).

ثالثا: ثلث المسلمين اليوم يعيشون أقليات مع أغلبيات مغايرة، كذلك يعيش الباقون غالبا مع أقليات مغايرة. ولا سبيل للتعامل فى كل هذه الظروف، لا سيما فى المناخ الدولى المعاصر، إلا بالتسامح والتعايش.

إن الجهاد يعنى إلزام النفس بمقاصد الشريعة واستخدام كل الوسائل لنشر مقاصد الشريعة ولا يستخدم العنف إلا فى حالة : الدفاع عن النفس أو مقاومة الاضطهاد الدينى .

ومن ضوابط الجهاد الشرعية أن تعلنه جهة مأذونة أى قيادة شرعية ، وأن يلتزم بقانون الحرب الإسلامى .

فى حالة الدفاع عن النفس والدفاع عن حرية العقيدة يصير الجهاد القتالى واجبا .

ولكن ماذا يكون الأمر فى حالة دولة المواطنة وقواتها المسلحة القابلة لتكوين متعدد الأديان؟

السابقة الإسلامية فى هذا الصدد هو صحيفة المدينة التى ألزمت المسلمين والآخرين من سكان المدينة بالدفاع عنها ضد العدوان عليها . المسلمون والآخرون ملزمون بعهد المواطنة وعهد المواطنة يلزم المواطنين كافة بعقيدة قتالية محددة تلتزم بها القوات المسلحة ، والمسلمون ملزمون بالوفاء بهذا العهد دينا ومواطنة .

العلاقات الدولية

لقد كانت الدولة الإسلامية فى نزاع حربى مع الدول الأخرى . وكانت الحرب هى الحالة السائدة فى العلاقات الدولية . وكانت الدولة الإسلامية دولة غالبة فى حلبة الصراع الدولى على طول العهدين الأموى والعباسى . وواقع العالم وصورته فى نظر الفقهاء يومئذ كان منقسما إلى دار الإسلام ودار الحرب ، وهذه تضم كل العالم غير الإسلامى باستثناء عدد قليل من الدول التى عاهدت الدولة الإسلامية عهدا فيه اعتراف ضمنى بهيمنة الدولة الإسلامية .

هذا الحال كله كان يعتبر مؤقتا ، فالرسالة المحمدية للناس كافة . والمسلمون مطالبون بنشر الإسلام فى العالم كله عن طريق الجهاد بمفهومه الواسع . لقد ناقشنا أعلاه آيات السيف وفسرنا الظروف التى ربطتها بالقتال . السياسة الدولية التى أوجبها جمهور الفقهاء يومئذ هى : علاقات دولية تقوم على الحرب . وواجب جهادى يفرض على المسلم نشر الإسلام بالقوة . ومعاملة للمغلوب تقوم على استرقاقه إن غلب فى الحرب

أو على الاتفاق معه فى عهد غير متكافئ إن استسلم دون حرب. وإن عاش غير المسلم فى ظل الدولة الإسلامية بصفة دائمة فهو فى ذمتهم ينظم حقوقه وواجباته عهد الذمة. وما دامت الحرب مستمرة فإن الذميين يعاملون بحذر شديد فتحجب عنهم أسرار الدولة لأنهم ربما ظاهروا العدو وسببوا أذى بليغا، أو ربما خدعوا المسلمين على نحو ما ذكرت الآية الكريمة: ﴿**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٢].

وعلى هذه السياسة الدولية قامت الأحكام التى أوجبها جمهور الفقهاء لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم.

العالم المعاصر

فإذا قفزنا قفزة تاريخية من ذلك الحال إلى عالم اليوم لوجدنا واقع المسلمين والعالم الذى يعيشون فيه الآن هو:

(أ) واقع المسلمين اليوم:

● دول بها أغلبيات من المسلمين يدينون بمذاهب شتى تتراوح بين السنة (البلاد العربية وأكثرية البلاد الآسيوية والأفريقية) والشيعة (إيران والعراق ولبنان وجيوب أخرى فى البلاد العربية) والأباضية (عمان) وبين هؤلاء المسلمين تاريخ طويل من النزاع والتفرق.

● وتحكم البلاد الإسلامية فى الغالب نظم استبدادية تدين لحكم الفرد وراثة أو غصبا عسكريا.

● هذه الدول الإسلامية علاقتها فيما بينها واهية وعلاقتها الأقوى هى علاقات ثنائية أو جماعية تربطها بدول غير إسلامية وتقوم على أساس المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية.

● وتوجد جماعات إسلامية ضخمة ـ ربما قارب عددها عدد المسلمين فى البلاد الإسلامية ـ فى بلاد غير ذات توجه إسلامى: فى الصين الشيوعية (١١٠ مليونا) وفى

جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق (٨٥ مليونا) وفى الهند (٨٠ مليونا) وفى أثيوبيا (١٥ مليونا) وفى لبنان مليونان وهلم جرا.

ب ـ وصارت البلاد غير الإسلامية هى اليوم بالمقاييس الاقتصادية والعسكرية متفوقة على البلاد الإسلامية تفوقا مطلقا، بل صارت بقروضها، ومعونتها وما تملك من قدرات علمية وفنية، وما تتجر فيه من أسلحة وذخائر، وما تقوم به من تدريب علمى وفنى وعسكرى، مهيمنة على البلاد الإسلامية هيمنة تفرض على البلاد الإسلامية علاقات غير متكافئة.

جـ ـ وفى القرن العشرين الميلادى نشأت تنظيمات دولية بمقتضى مواثيق الأمم المتحدة ـ فقام تنظيم دولى ضم كل الدول وكل الناس على اختلاف مللهم وأعراقهم. تنظيم جعل السلام، هو أساس العلاقات الدولية ووضع ترتيبات لحماية السلام وحرم الحرب إلا الدفاعية، ونظم واجبات الدول فى التصدى للعدوان. والدول الإسلامية اليوم كلها أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة ملتزمة بميثاقها وبميثاق حقوق الإنسان.

د ـ وبالإضافة للمواثيق والمنظمات ارتبطت مصالح وعلاقات واتصالات الأسرة الدولية فنشأ رأى عالمى منحاز إلى السلام فى العلاقات الدولية وملتزم باحترام الحريات الأساسية وعلى رأسها حرية الاعتقاد والفكر، وصار الجميع ـ بصدق أو خداع ـ يلتزمون بالدعوة لمعتقداتهم بالتى هى أحسن مما اقتضى:

- فنونا فى تبليغ المعتقدات تقوم على المنطق والحجة ودواعى المصلحة العامة والخاصة.
- وقيام تنظيمات ثقافية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية، ورياضية، وفنية، ذات فاعلية فى خدمة المعتقدات والدعوة السلمية لها.
- وتنظيم تحركات داخل المجموعات المراد تحويلها إلى معتقد معين ليكون تحويلها إن حدث بإرادتها الذاتية وممارستها فى تقرير مصيرها.
- وصارت النظم والمواثيق والقيم السائدة تشجب الإملاء الخارجى والغزو العسكرى لتحقيق أو فرض عقيدة معينة على جماعة بعينها.

هـ ـ وظهرت حقائق جديدة هى:

● وجود جماعات كبيرة غير مسلمة تساكن المسلمين فى ديار غالبيتها من المسلمين، وتم ذلك على النحو الآتى:

ـ انتشرت الدعوة الإسلامية سلميا ودعمتها الهجرات العربية حتى أسلم واستعرب غالبية السكان ولكن بقى منهم على غير الإسلام جماعات ـ مثلا ـ فى السودان.

ـ غلب المسلمون على البلاد عسكريا ثم سقطت سلطة الدولة الإسلامية بفعل الاستعمار أو بالتخلى عن حكم الشريعة. وتبدلت العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين بطول المساكنة والمخالطة الاجتماعية وحلت المواطنة محل الذمة فى علاقات الجماعات المسلمة وغير المسلمة ـ مثلا ـ فى مصر والشام.

ـ أسلمت أكثرية السكان سلميا على مدى زمن طويل وبقيت بينها أقلية غير مسلمة ـ مثلا ـ فى إندونيسيا وتنزانيا.

والملاحظ فى هذا الصدد أن الإسلام انتشر فى أفريقيا السمراء وفى الشرق الأقصى وينتشر فى أوروبا الغربية وفى أمريكا إبان فترات ضعف الدول الإسلامية السياسى والعسكرى والاقتصادى. وهذا معناه أن ظروف الحرية الدينية كانت لصالح انتشار الإسلام ـ فى تقرير عن انتشار الإسلام والمسيحية فى أفريقيا السمراء فى الستينات. ذكر ذلك التقرير أن مقابل كل واحد يتنصر يسلم عشرة أشخاص.

ـ وجدت دول غير إسلامية قوية تجاور البلاد الإسلامية وتمنح الأقليات غير المسلمة فيها نوعا من الحماية مما يحول دون فرض علاقات الغلبة عليهم. وإن فرضوها رغم ذلك فإن من شأنها أن تجرد المسلمين من حق المطالبة بإنصاف الأقليات المسلمة فى البلاد غير الإسلامية.

ـ وحل واقع جديد لا يمكن نقضه إلا بالحرب. ذلك الواقع يمنع تصنيف الناس إلى أحرار وعبيد؛ لأن أبواب الرق قد أغلقت ولا يفتحها إلا فرض نظام دولى جديد.

ـ والواقع الجديد يمنع اعتبار الأقليات الدينية فى البلاد الإسلامية أهل ذمة لأنهم اكتسبوا حقوقا فوق ذلك لن يتنازلوا عنها إلا إذا غلبوا على أمرهم بالقوة.

هذا هو واقع المسلمين اليوم، وواقع العالم المعاصر، وواقع الحقائق الجديدة، فإذا قام نظام إسلامى يلتزم بالأحكام التى رآها جمهور الفقهاء فى العلاقات الدولية فإن هذا يقتضى الآتى:

أ ـ إلغاء المواثيق والنظم الحالية؛ لأنها قائمة على أساس مساواة الحقوق الإنسانية وعلى المعاملة بالمثل.

ب ـ تنظيم العلاقات مع غير المسلمين على أساس الحرب المستمرة، اللهم إلا الذين قبلوا إقامة علاقات ثنائية مع المسلمين تقوم على عهد يقر للمسلمين باليد العليا.

جـ ـ استعداد المسلمين لخوض قتال ضد كل الذين لا يقبلون الإسلام دينا.

د ـ فرض نظم الذمة والرق على الأقليات الدينية وعلى الذين غلبوا نتيجة القتال الشرعى الذى يخوضه المسلمون لنشر الإسلام.

هـ ـ إلزام الأقليات المسلمة فى البلاد غير الإسلامية بالهجرة إلى دار الإسلام ـ وهم كما رأينا مئات الملايين من البشر.

بهذه النتيجة يفرح العلمانيون فرحا شديدا، ويستشهدون بها على عدم صلاحية الإسلام للعصر الحديث. ويقولون أن للإسلام أن يستمر كعقيدة وعبادة ما آمن به الناس ولكنه لا يصلح كأساس للقوانين ونظم الحكم وتنظيم العلاقات الدولية.

الخيار الذى يراه هؤلاء هو بين علاقات دولية تقوم على الأحكام التى اتفق عليها جمهور الفقهاء الأقدمين وبين العلاقات الدولية الحالية التى تقوم على مبادئ علمانية تناقض النظام الدولى الذى صوره الفقهاء فى جوهره وفى كل تفاصيله وفى هذا الخيار فإنهم يرون أن الاختيار سيكون حتما لصالح العلاقات الدولية العلمانية الحالية. والسؤال هو:

هل يمكن قيام العلاقات الخارجية على العهد فى الشريعة الإسلامية؟ أقول:

أ ـ إن أول عهد يشبه تنظيم علاقة خارجية هو الذى قام بين النبى ﷺ وأهل يثرب والذى سمى فى السيرة «بيعة العقبة الكبرى» وفحواه أنهم عاهدوا النبى ﷺ على حمايته مما يحمون منه أهلهم وذويهم ـ أى أنه كان عهدا دفاعيا.

ب ـ ثم هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، وهنالك كان أول إجراء قام به هو كتابة دستور ـ هو أول دستور مكتوب فى التاريخ ـ سمته السيرة «صحيفة المدينة». . صحيفة المدينة هذه حددت حقوق وواجبات كل سكان يثرب من مسلمين وغير مسلمين وألزمت الجميع بالدفاع عن هذا المجتمع الجديد.

جـ ـ وكان القرشيون المشركون يسومون المسلمين سوء العذاب فاضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة ومنعوهم من العبادة وحاربوهم فى الرزق وطاردوهم حتى كانت الهجرة الأولى إلى المدينة، فكانت العلاقة بين المسلمين وقريش علاقة عدوان مستحكم بدأه وواصله القرشيون، لذلك قام القتال بين المسلمين والقرشيين على حد قوله تعالى: ﴿**أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١٣]. أوضحت هذه الآية منطق القتال الذى تواصل بين المسلمين وقريش وكانت أول آية نزلت فى الإذن بالقتال قد أوضحت سبب ذلك الإذن هى الآية التى قال فيها تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ [الحج: ٣٩].

د ـ وكاتب النبى ﷺ الملوك والأمراء والحكام خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى الدين الجديد. هؤلاء لم يقدروا خطاباته بل عدوه متمردا وأرسلوا لعملائهم من العرب أو لعمالهم فى المناطق القريبة من الحجاز أن يستبينوا هذا المتمرد وإلا بعثوا برأسه. فردوا على الدعوة للإسلام بالعدوان على صاحبها.

هـ ـ وكانت البلاد المجاورة للجزيرة العربية مستعمرات يحكمها الفرس أو البيزنطيون ويفرضون على شعوبها ألوانا من القهر الدينى والاستغلال الاقتصادى. لذلك تعاونت هذه الشعوب على حكوماتها مع المسلمين فسهلت لهم مهمة الفتح بل فتحوها محررين لها من نير ظلم أجنبى ولم يجبروها على الإسلام بعد الفتح، بل منحوها حرية دينية فاقت أضعافا مضاعفة ما وجدوه فى ظل الفرس والروم (البيزنطيين) وأما الجزية التى فرضها المسلمون مقابل حماية هذه البلدان فقد كانت خفيفة جدا بالمقارنة بالأعباء الاقتصادية الفادحة التى كان يفرضها الفرس والروم. كانت الجزية مفروضة على القادرين على القتال من الرجال، فلا يدخل فيها الشيوخ

ولا النساء ولا الأطفال، وكانت مقاديرها طفيفة. قال الإمام أبو حنيفة(*): «الجزية على الفقير ١٢ درهما (فى السنة) وعلى المتوسط ٢٤ درهما، وعلى الغنى ٤٨ درهما» وكان الدينار يساوى ١٢ درهما. والدينار بنقد السودان فى الستينات يساوى ثلاثين قرشا. أى أن الجزية كانت تساوى ثلاثين قرشا سودانيا للفقير فى السنة، وستين قرشا للمتوسط ومائة وعشرين قرشا للغنى. وهى مبالغ زهيدة جدا.

فلم يجبر المسلمون الآخرين على الإسلام لا بالقهر الدينى ولا بالضغط الاقتصادى. لذلك بقيت أغلبية سكان البلدان التى فتحها المسلمون على دينها القديم قرونا بعد الفتح الإسلامى إلى أن أسلمت أغلبيتها باختيارها وبالهجرات العربية إليها.

فالقول بأن الجهاد لنشر الإسلام، وأن الإسلام انتشر بحد السيف أكذوبة. والجهاد ليس محصورا فى القتال كما بينا..

إن نصوص الشريعة الإسلامية التى ينبغى أن نراعيها فى إقامة علاقاتنا الدولية هى:

أولا: أن الإنسان مكرم لمجرد إنسانيته: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: ٧٧].

ثانيا: العدل مأمور به ومطلوب دائما وفى كل الحالات: قال تعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٨].

ثالثا: الوفاء بالعهد واجب دائما وفى كل حال. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨]. وقال ﷺ: «ثلاثة الكفر والإيمان فيهن سواء: العهد والأمانة والرحم. فإن عاهدت فأوف العهد، وإن ائتمنت فأد الأمانة لأهلها، وصل الرحم، سواء أكان المعاهد والمؤتمن وذو الرحم مؤمنا أو كافرا».

رابعا: والتعاون مع الناس من غير ملتنا مطلوب ما لم يظلمونا. قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة: ٨].

خامسا: حرية العقيدة. قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

سادسا: إن هذه الدنيا وما فيها من مخلوقات: حيوانها ونباتها وجمادها، خليقة موزونة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ـ ومسخرة لانتفاع الإنسان وهو مطالب بتعميرها) ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] ـ أى جعلكم عمارها.

سابعا: الأمة الإسلامية واحدة من حيث أن كتابها واحد، ورسولها واحد، وقبلتها واحدة، ووحدتها التامة هدف أساسى لا يتخلى المسلم من التطلع إليه فإن فات تحقيقه لأسباب قاهرة فينبغى الحرص على اتخاذ أوسع الخطوات فى سبيله، وهذا يقتضى:

أ ـ العمل على توحيد المذاهب الإسلامية على الكتاب والسنة أصلا مع جواز الاختلاف فى التفسير والاستنباط لتقوم بين أهل القبلة قناة وحدة روحية تنظم ممارسة العبادات والشعائر. وقناة وحدة فكرية تنسق الاجتهاد وتضع خطة لتطوير الثقافة الإسلامية، وتضع منهاجا للاستفادة من الثقافات الإنسانية الأخرى.

ب ـ إيجاد مؤسسات تحقق أعلى درجات ممكنة من التعاون السياسى والاقتصادى والدفاعى بين البلاد الإسلامية.

جـ ـ إقامة نظم تحكيم مشتركة مهمتها التصدى لكل المشاكل التى تنشأ بين الدول الإسلامية لعلاجها علاجا عادلا.

د ـ تكوين منظمة للشعوب الإسلامية تضم علماء، وفقهاء، ومفكرين، وحركات الدعوة الإسلامية لتوحيد حركة الدعوة الإسلامية على الصعيد الشعبى وتوحيد عطائها فى طريق البعث الإسلامى.

ثامنا: على كل المسلمين أن يحموا أنفسهم ويدافعوا عن أراضيهم ويصونوا قوتهم وعليهم ألا يتعاملوا أبدا مع غير المسلمين تعاملا قائما على التبعية فإن ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

تاسعا: على المسلمين أن ينظموا علاقاتهم مع غير المسلمين بموجب معاهدات ومواثيق عادلة، فإن لم توجد لأى سبب من الأسباب فالقاعدة المثلى للتعامل مع الآخرين هى المعاملة بالمثل. قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

عاشرا: على المسلمين إيجاب الجهاد، وهو يعنى العمل بكل الوسائل لتكون كلمة الله هى العليا ولبث الدعوة الإسلامية حيث لم تصل، والدعوة لإقامة الشريعة حيث عطلت، وبذل الوسع كله فى سبيل هذين الهدفين، والاستعداد الدائم تدريبا وعتادا ووعيا بأساليب القتال لبذل الروح والمال والولد قتالا فدائيا فى سبيل الله إذا منعت حرية الدعوة للإسلام أو إذا وقع عدوان على بلاد الإسلام.

فالجهاد هو موقف دائم وغرس تربوى واستعداد يجمع صاحبه بين روحانية الراهب وتحفز الجندى، تصوره الصلاة ـ عماد الدين ـ خير تصوير: ففى الصلاة جمع فريد بين حركة الجندية وتجرد الرهبانية.

لذلك كان الجهاد ـ ومازال وسوف يظل ـ سنام الإسلام، كما كان الترهب ـ ومازال وسوف يظل ـ سنام المسيحية، وهذا هو معنى قوله ﷺ «لكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله».

الالتزام بهذه المبادئ العشرة يعنى الآتى:

أولا: التخلى عن السياسة الدولية كما استنبط أحكامها جمهور الفقهاء وصاغ نظرياتها وأحكامها ـ مع اختلاف بينه وبين غيره فى التفاصيل ـ الإمام محمد بن الحسن الشيبانى فى كتابه السير. . التخلى عنها واعتبارها نظريات وأحكاما لعبت دورها التاريخى فى مرحلة من مراحل تطور الفقه الإسلامى. وينبغى أن يخلفها اليوم فقه يستنبط أحكامه اجتهاد جديد من نصوص ومقاصد الشريعة التى ذكرناها فى النقاط العشر.

ثانيا: مراجعة مواثيق ونظم النظام الدولى الحالى على ضوء هذه المبادئ العشرة، فما وجدناه معارضا لها تخلينا عن الالتزام به وسعينا إلى تعديله.

ثالثا: أن نجعل تلك المبادئ موجهة لعلاقتنا الدولية، فلا ندخل فى أى التزامات أو مواثيق لا تتمشى معها.

الأمم المتحدة

العلاقات الدولية اليوم تفترض أن الدول وحدات وطنية ذات سيادة، وأنها تلتزم

بميثاق الأمم المتحدة وبالمنظمة الدولية (الأمم المتحدة) كمؤسسة عالمية جامعة. إن الوحدات التى تلتزم بهذا الميثاق وتضمها الأمم المتحدة هى الدول الوطنية وقد بينا الموقف الصحيح من الرابطة الوطنية.

إن ميثاق الأمم المتحدة وثيقة جليلة، ومنظمة الأمم المتحدة منظومة جامعة كما أن منظمات الأمم المتحدة المتخصصة منظمات ضرورية وبالغة الفائدة فى مجالاتها. ولكن ما يعاب على النظام الدولى الراهن بمقياس العدل هو:

أ ـ الأمم المتحدة لا تقوم على المساواة بين أعضائها، إذ تمنح الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن حق النقض، فكل واحد منهم يستطيع بصوت واحد أن ينقض قرار المجموعة الدولية كلها. وهؤلاء الأعضاء الدائمون لم يستحقوا حق النقض بموجب مؤهلات موضوعية، بل لأنهم هم الحلفاء الخمسة الذين هزموا دول المحور فى الحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م).

ب ـ والأمم المتحدة تقف عاجزة أمام الخطر الذى يهدد السلام العالمى، لأن الأعضاء الذين لهم حق النقض يحابون بعض حلفائهم، أو يتحدون حقوق الآخرين، وعندما تتحرك الأسرة الدولية لتشجب العدوان يحال بينها وبين قرارها عن طريق حق النقض. وصار عدوان المعتدين يحتمى من المحاسبة الدولية بحماية أحد الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن.

جـ ـ وكثير من أعضاء الأمم المتحدة يوقعون على ميثاق حقوق الإنسان ويلتزمون التزامات نظرية، ولكنهم فى واقع الحال يستخفون بكل الحقوق والمواثيق، ولا بد من إيجاد وسيلة لمساءلة الدول التى تستخف بحقوق الإنسان وتتلاعب بالالتزامات الدولية.

د ـ إن منظمات هيئة الأمم المتحدة المتخصصة ـ فى الخدمات الزراعية والثقافية والصحية ـ هى أفضل أنشطة الأمم المتحدة عملا وأكثرها عطاء، ولكن المنظمات المتخصصة فى الشئون التنموية والمالية والنقدية ـ مثل البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى ـ تقوم على أسس منحازة تماما للنظام الرأسمالى، وخاضعة لتوجيهات الدول الغنية، فكل الأنشطة الدولية الحالية المالية والنقدية والتجارية تقوم فى بنيتها

كمؤسسات، وتتبع سياسات منحازة إلى اتجاهات ومصالح الدول الغنية على حساب الدول الفقيرة.

هـ ـ لقد وضعت الدول الغنية هذه المؤسسات وحددت دساتيرها وسياساتها فى غيبة الدول الفقيرة بعد الحرب الكبرى الثانية مباشرة، ولا بد من مراجعتها بعد حضورها لأخذ حقوقها ومصالحها فى الحسبان.

و ـ ووجود رئاسة الأمم المتحدة فى أرض غير محايدة تعطى الدولة المضيفة امتيازات ربما استخدمتها ضد بعض أعضاء الهيئة أو حتى ضد الهيئة نفسها.

ز ـ ولقد أقامت الدول الكبرى نظما دولية خارج المنظمة الدولية، وهى تسعى بوسائل كثيرة لفرض هيمنتها على الدول الصغيرة، والأمم المتحدة تقف عاجزة أمام هذه الأنشطة التى تشكل خطرا كبيرا على السلام العالمى، ولابد من أن تعى الدول الصغيرة هذا الخطر وتتكتل لدرئه.. أولا: بمنع قيام علاقات غير متكافئة بين الدول الصغيرة والدول الكبرى. وثانيا: بإيجاد وسائل حماية جماعية تستفيد منها الدول الصغيرة.

حـ ـ وهناك دول تشكل خطرا على السلام بما تمارس من عنصرية وعدوانية وقمع مثل إسرائيل فى آسيا، ومهما كان رأى الأسرة الدولية واضحا فى إدانة هذه الدولة فإنها تجد حماية من أثر تلك الإدانة، وتعمل دون انقطاع على خلق واقع ينشر سياسات لا يمكن أن يكون معها سلام فى آسيا. ولابد من إيجاد وسيلة لدرء هذا الخطر.

ط ـ إن الدول الإسلامية تتحرك اليوم آحادا فى السياسة الدولية، وينبغى إيجاد صيغة لتتحرك بموجبها تحركا جماعيا وأن تضم معها الدول المستضعفة المتطلعة إلى نظام دولى أعدل وأفضل.

إصلاحات ضرورية لمواثيق ونظام الأمم المتحدة

أولاً: ضرورة مراجعة المواثيق لإدخال القيم الروحية، والخلقية، والثقافية، والبيئية فيها لأنها كتبت فى ظروف أغفلت تلك الجوانب الهامة فى حياة البشرية.

ثانيًا: ضرورة تكوين منظمات متخصصة للأمم المتحدة فى مجالى حوار ووئام الحضارات، وحوار ووفاق الأديان.

ثالثا : تجاوز رواسب الحرب الأطلسية الثانية نهائيا وحسم كل المسائل المتعلقة بها فالذين كانوا يواجهون بعضا فى خنادق الحرب اليوم أصدقاء فى نطاق سلام واحد والمطلوب أن تقنن الحدود والحقوق نهائيا بحيث لا يسمح بالعودة لظروف ما قبل الحرب. القوى التى خسرت الحرب كألمانيا، واليابان، ينبغى ألا تعامل من الآن فصاعدا على أساس ماضيها ولكن على أساس وضعها الراهن فأجيالها الحالية لا تقبل أن تعاقب على جنايات أجيال سبقت وأية محاولة لفرض ذلك عليهم ستأتى برد فعل مضر للسلام العالمى.

رابعا : النظام الدولى الحالى الذى تجسده الأمم المتحدة نظام أقامه المنتصرون وهو نظام خطا بالعلاقات الدولية فى الاتجاه الصحيح. ولكن ينبغى الآن على ضوء تجربة الأربعين عاما الماضية، وعلى ضوء آراء الذين لم يشاركوا فيه مشاركة تأسيسية من الدول التى هزمت ودول العالم الجنوبى أن يراجع ليصبح بحق برلمانا دوليا. كما يراجع تكوين مجلس الأمن ليصبح أداة للسلام والتعاون الدولى عادلة التمثيل للأسرة الدولية. إن الفكر اللبرالى قد وضع مقاييس لكيفية النيابة والقيادة وهى مقاييس عادلة ولا يجوز أن تكون المؤسسة الدولية الأولى نابية فى تكوينها عن تلك المقاييس. فى هذا الصدد فإن العالم محتاج بحق إلى شرطة دولية وهو دور ينبغى ألا تقوم به أية دولة مهما عظمت قوتها ولكن تقوم به الدول ضمن ضوابط النظام الدولى والقانون الدولى. الدور واجب وإهماله تفريط فى السلام الدولى وممارسته بضوابط عادلة ضرورة.

خامسا : لقد تطورت المنظمات المتخصصة للأمم المتحدة تطورا صحيا والتزمت بمقاييس التمثيل العادل مثل منظمة الصحة العالمية، منظمة الفاو، اليونسكو، وغيرها ولكن هذه المنظمات قعدت بها الإمكانات المادية والفنية دون تحقيق درجات أعلى من العطاء. إن مراجعة نظام الأمم المتحدة بحيث يخرج من كونه ظلا لهيمنة المنتصرين بعد الحرب العالمية الثانية سوف يوظف موارد مادية أوسع لتمويل المنظمات المتخصصة.. هنالك قضايا خطيرة جدا استجدت على الساحة الدولية وزاد خطرها مثل : الحروب الإقليمية ـ العنف الدولى ـ الدين الخارجى ـ المخدرات ـ تدهور البيئة ـ التوازن السكانى ـ الجفاف والتصحر ـ الفقر ـ والأمراض الفتاكة لا سيما الإيدز[٣]... هذه القضايا

ينبغى علاجها فى إطار دولى ليتعاون الجميع وفق رؤية متفق عليها لمواجهتها بحزم شديد وكفاءة عالية.

سادسا: لقد لعب البنك الدولى دورا إيجابيا، كذلك صندوق النقد الدولى ومنظمة القات للتجارة العالمية. ولكن مطلوب تطوير هذه المؤسسات على نحو توصيات لجنة برانت[٤] ـ وزيادة ـ لتناول وحل مشاكل ما كانت فى حسبان الذين خططوا لهذه المؤسسات. إن ثروة العالم اليوم قائمة على وجود نظام اقتصادى، ومالى، وتجارى عالمى حر ومستقر. إن النظام الحالى مع الدور العالى الذى يقوم به مدفوع بأنه نظام منحاز لمصالح مخططيه. الآن توجد فرصة كما لم تكن فى الماضى أبدا للتخطيط لنظام اقتصادى عالمى حر يرتضيه الجميع بعد أن يشاركوا فى التخطيط له ويجنبوه مظالم وأخطاء التجربة التى حدثت بعد الحرب الأطلسية الثانية.

سابعا: إن فى العالم الجنوبى فى أمريكا الجنوبية، وفى بعض بلاد آسيا، وفى أفريقيا مشاكل تنموية من نوع خاص بكل إقليم منها بحيث أن أسوأها هى مشاكل أفريقيا السوداء. هذه البلاد تعانى من مشاكل هيكلية لا يمكن حلها إلا فى إطار تعاقد بين دولها وجهة دولية متخصصة ومؤهلة ومشاكل استثمارية ينبغى حلها فى إطار تفاوض بين الدول الفقيرة والشركات الاستثمارية العالمية للاتفاق على برامج استثمارية تقبل عليها الشركات وترتضيها الدول المعنية. المطلوب فى هذا الصدد هو تكليف هيئة متخصصة مؤهلة لوضع أسس تتعاقد عليها الدول المعنية لإحداث حقنة تنموية تعالج المشاكل المزمنة فى العالم الجنوبى وتنتشله من الهاوية وتعده للمساهمة فى بناء حضارة الإنسان. إن العالم الغنى المستنير المدرك لوحدة مصير الإنسان مطالب بتطوير نظرته لمشاكل العالم الجنوبى على نمط الأسلوب الذى عالجوا به مشاكل الفقر والتظلم الاجتماعى داخل مجتمعاتهم الوطنية. أى درجة من الاهتمام أقل من ذلك لا تجدى.

فى هيكل الأمم المتحدة يقوم مجلس الأمن بدور هام فى قيادة الأمم المتحدة فى قضايا الأمن الدولى. ينبغى تكوين مجلس مواز لقيادة المهام الاقتصادية الاجتماعية البيئوية فالأمن بمعناه يعنى الحرص على عالم يكفل لسكانه حياة كريمة وعادلة ومستدامة.

ثامنا: إن للقوة العسكرية حدودا فى تحقيق الأهداف السياسية، هذا هو الدرس المستفاد من تجربة أمريكا فى فيتنام وروسيا فى أفغانستان وفى العراق. ولا جدوى

لسباق التسلح لأن ما تحقق من توازن الرعب جعل كل طرف قادرا على تحطيم الآخر ولا يستفيد البادئ بل كلاهما يواجه مصيرا واحدا هو الدمار الشامل النتيجة لن تكون غالبا ومغلوبا ولكن مغلوبين[٥].

هذه الخطة ذات الثمانية أضلع هى الأرضية التى تمهد للحوار بين الحضارات بإنهاء أوجه الغبن التنموى والإستعلاء الغربى، ولكنها محتاجة لمتطلبات «ذهنية» للغرب فى قبول الآخر واحترامه واحترام دوره وطوعية خياراته الحضارية.

الوحدة الإسلامية

التطورات العالمية نحو العولمة تزيد من الوعى بالذات الحضارى وبالمصالح الوطنية الإقليمية لذلك نشطت مع العولمة تيارات التكوينات القومية والإقليمية لتحقيق أقصى درجات الانتفاع بالواقع العالمى الجديد وحماية المصالح الخاصة والحماية من الهيمنة.

ماذا عن الوحدة الإسلامية؟

الوحدة المتجسدة فى دولة واحدة لم تعد ممكنة فى المستقبل المنظور، إنها اختفت من الواقع الإسلامى منذ نهاية العهد الأموى فى عام ١٥٠هـ. إن مفهوم القيادة العليا الواحدة كما كان متاحا للخليفة لم يعد واردا؛ لأن ضوابط العدالة صارت تقتضى أن يكون رئيس الدولة مختصا بالسلطة التنفيذية، ضمن إطار يحدد مؤسسات السلطة التشريعية والقضائية، وآليات تبسط الشورى والمشاركة على نطاق واسع عبر مؤسسات المجتمع المدنى والصحافة وآليات البحث العلمى والاجتهاد الفكرى والتطور الثقافى، وهى آليات لها دورها ووزنها ووظيفتها القانونية. حتى فى إطار دولة قطرية واحدة لم تعد توجد مؤسسة قيادة شاملة مطلقة إلا فى الدولة الاستبدادية.

إن وجود دول مختلفة محكومة بنظم دستورية لا يمنع التعامل مع مفهوم السيادة الوطنية بمرونة وتحقيق وحدة فى مجالات عديدة:

١ـ فى المجال الروحى والعبادى إذ يمكن للمسلمين الاتفاق على ما يجمع بينهم والتعايش فيما يفرق بينهم على أن يقيموا تنظيما موحدا يقرر بشأن المسائل العقدية والعبادية ويتخذ تكوينًا جماعيًا شوريًا.

٢ ـ تكوين محكمة استئناف عليا ذات صلاحيات متفق عليها للحكم فى قضايا معينة .

٣ ـ برنامج موحد للتعليم الدينى وتعاون فى كافة المجالات التعليمية . برنامج يحقق التعاون فى مجالات معينة ويفسح مجال التنوع .

٤ ـ تعاون ثقافى وإعلامى .

٥ ـ تنسيق تنموى وتجارى فى المجال الاقتصادى والتجارى .

٦ ـ إن توافر خام البترول فى كثير من الدول الإسلامية وهو ثروة ناضبة يتيح فرصة ذهبية للمسلمين لوضع خطة استراتيجية لإنتاجه وتسويقه تأخذ فى الحسبان العدل بين المنتج والمستهلك وتأخذ فى الحسبان التوظيف الأمثل لعائداته بما يحقق الطفرة التنموية فى العالم الإسلامى خاصة وفى عالم الجنوب عامة . وهنالك مشكلة المياه العذبة التى توجب استراتيجية عليا لترشيد استخدامها وتوفير كمياتها وتنسيق البرامج القطرية لتحقيق أعلى درجات التعاون فى أمرها .

٧ ـ تحديد آليات للحوار الداخلى بين المسلمين وأخرى للحوار مع غيرهم .

إن الإبقاء على تعدد الدول لا يتنافى مع تحقيق درجة عالية من التنسيق والتوحد فى المجالات الدينية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والحضارية لبلوغ درجة من الوحدة الإسلامية وترك المجال مفتوحا للتطوير المستقبلى .

العولمة

ما هى العولمة؟ وما هو أثرها على عقائد الناس وعلى هواياتهم الثقافية؟

أ ـ هنالك عولمة فرضها إدراك البشر لمصلحة مشتركة فى كوكب الأرض ، المقام المشترك للإنسان : الأرض الكوكب الواحد ميراث الإنسانية ، والأصول المملوكة للبشرية كأعماق البحار والفضاء ، والغلاف الجوى ، والقطبان ـ مملوكات للبشرية كلها توجب نظرة مشتركة فى التعامل معها .

ب ـ هنالك عولمة فرضها الوعى الإنسانى بالمصير المشترك للإنسانية وتوالت المؤتمرات العالمية لتدرس موضوعاتها المختلفة ، ولتضع استراتيجية موحدة للتعامل مع

مشكلاتها مثل : مؤتمر البيئة ١٩٩٢ ، ومؤتمر السكان ١٩٩٥م، والمؤتمر الاجتماعى ١٩٩٦م، وهكذا.

جـ ـ هنالك العولمة التى ارتبطت بها العبارة أكثر من غيرها . . إنها العولمة التى صنعتها ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات والتى حولت المعاملات التجارية والمالية والاستثمارية، إلى سوق عالمى واحد . . هذه العولمة التى مكنت أصحاب السندات والأسهم وطلاب الصفقات التجارية من الانتقال عبر الآليات الإلكترونية بسرعة مذهلة وعلى نطاق عالمى، كما مكنت الشركات المتعددة الجنسية من توزيع عملياتها على نطاق عالمى، ومن نقل خياراتها الاستثمارية حيث التكلفة الأقل والربح الأكبر.

هذه الوجوه الثلاثة للعولمة: الاستعداد لإدارة الملكية الكوكبية المشتركة، وبرنامج المصير الإنسانى المشترك، والسوق العالمى الذى فتحته ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات تمثل عولمة حميدة.

هنالك عولمة خبيثة هى

أ ـ صحبت العولمة ظاهرة «الرأسمالية النفاثة». وهى حماسة للتنافس والربحية تندفع غير مبالية بآثار سلبية إنسانية واجتماعية لا سيما فى مجالين : المجال الأول: يتوقع أن تؤدى العولمة المرتبطة بالرأسمالية النفاثة إلى تراجع عن دولة الرعاية الاجتماعية فى الرأسمالية المتقدمة ـ كذلك عدم الاهتمام بالآثار السلبية التى تحدثها وسائل الإنتاج الحديثة على توظيف الأيدى العاملة. لقد كانت الإصلاحات التى لجأ إليها النظام الرأسمالى فاهتم بمصالح القوة العاملة، واتبع برامج رعاية اجتماعية، من أهم أسباب صنع السلام الاجتماعى فى البلدان الرأسمالية مما أبطل نبوءات كارل ماركس الصدامية. إن تيارات العولمة توشك أن تقوض البرامج الواعية التى أدت للسلام الاجتماعى والاستقرار السياسى. المقولة الصحيحة فى هذا الصدد: المجتمع الحر الذى يعجز عن مساعدة الأكثرية الفقيرة من مواطنيه سوف يعجز عن حماية الأقلية الغنية. المجال الثانى: تراجع الشمال المتقدم من كل المفاهيم والسياسات التى اقترنت بحوار الشمال والجنوب التى أوجبت اهتمام الشمال بالتنمية فى الجنوب كوسيلة من وسائل بناء الاستقرار العالمى. مثلما حققت الرأسمالية سلاما اجتماعيا فى أوطانها

بسياسات نقابية مستنيرة وببرامج رعاية اجتماعية متقدمة فإن الدول الغنية مطالبة بالاهتمام بتنمية الجنوب الفقير لبناء السلام والاستقرار فى العالم. ولكن التيار الراجح فى ظل تيارات العولمة هو ترك هذه الأمور كلها لعوامل السوق الحر. . السوق الحر فى البلدان الفقيرة لا يمكن افتراض وجوده بل المطلوب القيام بأعمال كثيرة لتكوينه.

ب ـ توزيع الثروة والقوة الاقتصادية، والقوة الاستراتيچية فى العالم توزيع غير متوازن. لقد أتاحت العولمة بإمكانات الاتصال والمعلومات والمواصلات للقوة الأعظم فى العالم فرصة هيمنة إعلامية بحيث تستطيع غسل أدمغة الآخرين، وأتاحت لها فرصة هيمنة اقتصادية واستراتيجية لم يعهد التاريخ مثلها من قبل. إن العولمة فى هذه المجالات صارت هيمنة القطبية الأحادية على السياسة الدولية.

جـ ـ كذلك أتاحت العولمة بالسوق العالمى الواحد، ووسائل الاتصالات والمواصلات والمعلومات فرصة لقوى الجريمة المنظمة لتصبح الجريمة معولمة من حيث التخطيط، والتنفيذ، والتدريب، وحماية عملياتها، وغسيل أموالها، واقتحام السوق التجارى والمالى الاستثمارى.

د ـ ثورة المعلومات، وطفرة وسائل الإعلام، والاتصالات والمواصلات، أتاحت فرصة هائلة لعولمة ثقافة التسلية الأمريكية، وهى ثقافة رائجة بالغناء الصاخب، والرقص الماجن، والمشروبات الفوارة، والمأكولات المحمولة، والملابس العارية. ومقترنة بسلوك الاستلاب واللامبالاة. إن انتشار ثقافة التسلية يعبر عن وجود فراغ روحى وعاطفى، ويغذيه، ويدفع ضحاياه فى كل اتجاه، يحاولون ملء الفراغ الروحى والعاطفى بتكوينات رافضة غريبة، وبالانغماس فى الكحوليات والمخدرات. إن المجتمعات الرأسمالية المتقدمة تعانى من أبشع صور المجاعة الروحية والعاطفية.

. . هذه الوجوه الأربعة من العولمة ـ الرأسمالية النفاثة، واختلال ميزان الثروة والقوة العالمى، والجريمة الدولية المنظمة، وثقافة التسلية الأمريكية ـ تمثل عولمة خبيثة.

الجوانب الخبيثة من العولمة استفزت كثيرا من المجتمعات لانفعال مضاد يعادى العولمة، ويلتمس الحماية لاستقراره الاجتماعى فى حصون التأصيل الدينى والانتماء الثقافى. هذه الانفعالات المضادة للعولمة اتخذت فى كثير من الأحيان طابعا متعصبا منكفئا يرفض العولمة جملة وتفصيلا حميدها وخبيثها. بل يعادى الحداثة كلها ويحاول

بعث ماض ذهبى معالمه مستقرة فى ذاكرة المجتمعات الجمعية تتطلع إليه كلما أحاطت بها التحديات.

هنالك أسباب مختلفة لانبعاث نداءات التأصيل الدينى والثقافى فى العالم فى الخمس الأخير من القرن العشرين. إن التماس الحماية من استلابات العولمة من أسباب انبعاث تلك النداءات. لقد شهد العالم فى الخمس الأخير من القرن العشرين مظاهر تعصب دينى منكفئ هندوسى، ويهودى، ومسيحى، وإسلامى.. إن كثيرا من الإيمانيين ودعاة التأصيل الثقافى التفوا حول هذه المظاهر المتعصبة، وتطاولوا بقهر الرأى الآخر، واستخدموا الإرهاب وسيلة للاحتجاج والتعبير الصارخ عن مواقفهم.

إن التمادى فى العولمة حميدها وخبيثها، دون الاستهداء بأيكولوچية إنسانية سوف يزيد من حدة نداءات الاحتجاج الدينى والثقافى فتتخذ أشكالا مهووسة عمياء تتيح الفرصة لقوى سياسية ـ بعضها مخلص لأهدافه المنكفئة، وبعضها انتهازى ـ لتزعزع السلام الاجتماعى والأمن الوطنى والاستقرار العالمى باسم الدين وباسم التأصيل الثقافى.

إن المفكرين والساسة الذين أسقطوا الدين من معادلة الحياة، واعتبروا الهوية الحضارية والثقافية نفايات سوف تزيل العولمة آثارها، يستشهدون بهوس دعاة التأصيل الدينى والثقافى على صحة مواقفهم.

إن النظرة الاستئصالية التى يقول بها هؤلاء لاستئصال الدين والانتماء الثقافى من الحياة. والنظرة الاستئصالية المضادة التى يقول بها أصحاب التعصب الدينى والانكفاء الثقافى رفضا للعولمة، نظرتان صداميتان يمكن لهما أن تقوضا السلام الاجتماعى داخل البلدان، وأن تقوضا الأمن والتعاون الدوليين.

إننا فى هذا المنحنى التاريخى من تطور الإنسانية جدير بنا أن نؤكد مرة أخرى أن الدين هام للحياة البشرية، وأن الهوية الثقافية جزء من تركيب المجتمعات الإنسانية. كذلك جدير بنا أن ندرك أن الإنسانية تخطت الحداثة فى حركة تطور لا رجعة منها إلى الوراء، بل تقفز عبر العولمة إلى عالم جديد لا يسعد إنسانه ولا يستقر حاله إذا لم يوازن بين مطالب الأصل ومطالب العصر. إن التمسك بالتأصيل وحده معناه التمسك بوفاء لا مستقبل له، كما أن التطلع للحداثة العولمة وحدهما معناه التطلع لمستقبل لا وفاء له.

الإرهاب

هنالك عبارات دخلت فى لغة السياسة الدولية تفتقر إلى تعريف يضبطها ويحول دون سوء الفهم فيها أهمها مفهوم الإرهاب وعلاقته بمفهوم الجهاد والتداخل المؤسف الذى وقع بينهما. والرأى عندى أن ترجمة TERRORISM بإرهاب خطأ والترجمة الصحيحة هى: الإرعاب أو الترويع وهو الاستخدام التعسفى للعنف لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ويشمل الآتى:

- استخدام العنف لتحقيق تلك الأهداف ضد سلطة شرعية.
- استخدام العنف لتحقيق تلك الأهداف ضد المجتمع المدنى.
- استخدام السلطة للعنف ضد معارضيها.
- العنف الذى تمارسه سلطات الاحتلال ضد حركات التحرير.
- ممارسات العنف التى تخرق قانون الحرب فى حالات الاقتتال.

الموقف من الإرعاب (الإرهاب): إن للقانون الدولى موقفا موثقا ضد الإرهاب هذا ينبغى تطويره على نحو ما تم لدى تطوير مبادئ حقوق الإنسان وإيجاب تطوير قوانين محاربة الإرهاب فى الدول الأعضاء وتكوين آلية دولية لمتابعة الموضوع تشرف على: توحيد القوانين القطرية ـ تحقيق تعاون على أعلى المستويات الإقليمية ضد الإرهاب ـ تنظيم حملة توعية وإعلام واسعة ضد الإرهاب ـ توحيد الإجراءات القانونية لتسليم الإرهابيين وتبديد تنظيماتهم ـ وتوحيد الإجراءات العقابية ضد الإرهاب. إن الأنشطة الإرهابية تتغذى من وجود مظالم فى مجالات كثيرة، ولمحاصرة هذه الأنشطة لا بد من: احتواء التفرقة العنصرية فى العالم ـ القيام بإصلاحات سياسية تحترم الحريات العامة وحقوق الإنسان ـ بذل جهد عالمى تنموى للمساعدة على تنمية البلاد الفقيرة وإعفاء ديونها ـ توجيه برامج جادة ضد المظالم الاجتماعية ـ وأخيرا وليس آخرا تركيز جهد عالمى جاد لإطفاء بؤر الالتهاب العالمية وأهمها: قضية فلسطين، قضية كشمير، وقضية أنجولا، وكافة رواسب تصفية النظام الاستعمارى فى أنحاء العالم المختلفة.

مصالح الأمة الاستراتيجية وحرب الإرهاب

أولا: ينبغى ضبط عبارة التوجه الإسلامى بصورة تحول دون العواصف العاطفية التى تهزم مقاصدها. هذا الضبط يوجب حوارا إسلاميا عبر مؤتمرات ومنابر مجدية.

ثانيا: ينبغى اتخاذ موقف أساسى ضد الإرعاب (الإرهاب) بصورة تحول دون استغلال الحرب المطلوبة ضده. هذا يوجب تعريف «الإرعاب» وإجراء حوار دولى عبر مؤتمر مؤهل لبحث وحسم القضية. لقد قدمنا تعريفنا للإرعاب أعلاه، ونرى أن يتم بحث الأمر والاتفاق حوله عبر الحوار المقترح.

ثالثا: الشرعية هى: رضا المحكومين بحكومتهم. فى كثير من البلدان الإسلامية تراجع هذا الرضا وظهرت فجوة شرعية. لقد نخر فى أساس الشرعية أمران: الأول: قياسها بمقاييس إسلامية كالشورى والعدالة والحرية. والثانى: قياسها بمقاييس إنسانية كحقوق الإنسان والحريات العامة. فجوة الشرعية هذه أوقدت مقاومة فكرية وسياسية وقتالية لذلك برزت فى كثير من البلدان الإسلامية صورة حكم ناف للآخر ومقاومة تريد استئصاله. هذه الصورة تهز الاستقرار الداخلى وتتفاعل مع الاضطرابات على الصعيد الدولى.

إن علاج فجوة الشرعية فى كثير من البلدان الإسلامية بصورة سلمية واجب إسلامى وإنسانى.

رابعا: لقد ذكرنا وجود بؤر التهاب دولية كانت ولا زالت وسوف تستمر تشكل مصادر للعنف ولا يرجى تحقيق وحفظ السلام العالمى إذا بقيت مشتعلة. لقد طرحت تصورات للتعامل العادل مع تلك البؤر فى دراسات مختلفة. واكتفى هنا بالتركيز على قضية فلسطين. وأهم معالم مشروع حل هذه القضية هى:

أ ـ الحل العادل للقضية والسلام المؤسس عليه هدف وطنى، وقومى، وإسلامى، وإنسانى، ودولى.

ب ـ الحد الأدنى لهذا السلام العادل هو:

ـ انسحاب إسرائيل دون قيد أو شرط من كافة الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧م.

ـ حق الشعب الفلسطينى المشرد منذ تأسيس إسرائيل فى العودة أو التعويض .

ـ تصفية المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة .

ـ حق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم .

ـ تطبيع الدولة بحيث يلغى قانون العودة الذى منح يهود العالم حقا استثنائيا فى المواطنة وبحيث يصبح المواطن العربى فيها مساويا للآخرين فى حقوق المواطنة .

جـ ـ لأسباب محددة لا يرجى أن يقبل الناخب الإسرائيلى فى الظروف العادية هذا الحد الأدنى . العوامل التى تحول دون ذلك القبول هى : وعود توراتية جعلت الأرض جزءًا من العقيدة الدينية ـ مخاوف رسبتها تجارب اليهود فى أوروبا ـ ومخاوف جديدة خلقتها ردود الفعل العربية لسياسات إسرائيل القمعية .

د ـ المسألة اليهودية وما صحبها من شحناء أنبتت الحركة الصهيونية وهى ظاهرة أوروبية دخيلة على المنطقة العربية فالعرب أبناء عمومة لليهود والإسلام يعترف باليهودية دينا إلهيا .

القرارات التى أدت لتكوين إسرائيل ابتداء من وعد بلفور إلى قرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٨م بقيام إسرائيل ، قرارات دولية أمليت على المنطقة دون أخذ رأى سكانها . وحتى عمليات السلام ابتداءا من القرار ٢٤٢ و٣٣٨ وكامب ديفيد وأخواتها : مدريد ، وأوسلو وغيرها من المحطات هندسات للأسرة الدولية اليد العليا فيها .

هـ ـ لا توجد إمكانية لسلام عادل عن طريق التفاوض بين طرفى النزاع فالحد الأدنى الذى يقبله المعتدى عليهم لا يقبله المعتدون .

لذلك سوف تستمر القضية تمزق الاستقرار فى إسرائيل ، وفى الدول المجاورة ، وفى الإقليم ، وفى العالم ولا سبيل للخروج من هذا الحريق الذى أشعلته الأسرة الدولية إلا بإقدامها بقيادة الولايات المتحدة على فرض السلام العادل . وإلى حين ذلك ينبغى أن تستمر المقاومة ويستمر دعمها .

ما ينبغى عمله على المدى القريب

عالم الجنوب وكافة منظماته الإقليمية مؤتمر الدول الإسلامية، جامعة الدول العربية، الاتحاد الأفريقى. . إلخ. ينبغى ألا تقف أسيرة لمخاوفها من البأس الأمريكى من ناحية ومن الغضب الشعبى من الناحية الأخرى. إذا وقفت هكذا أسيرة فإنها سوف تسمح للمتطرفين فى الغرب والمتطرفين فى الشرق أن يملوا أجندات التحرك الدولى إملاء هو الوبال لمستقبل الإنسانية. وإذا اكتفوا باجتماعات مراسمية لإعلان بيانات فوقية فإنهم بذلك يعلنون التنازل عن دورهم، الواجب يقتضى تحركهم السريع الفعال للتأثير على الأحداث.

أولا: الاتفاق على تعريف الإرعاب (الإرهاب) وتبنى الدعوة للمؤتمر الدولى والقيام بدور إيجابى فى آليات التصدى له.

ثانيا: تتبنى الجهات المعنية تشجيع الدعوة لمؤتمر الحوار الإسلامى/ الإسلامى للتصدى للقضايا المذكورة.

إن توجيه جهد دولى واسع على صعيد أمنى، وسياسى، ودبلوماسى، مطلوب بإلحاح ولكن تجفيف مصادر الإرهاب التزام هام.

الأقليات

ثلث المسلمين يعيشون أقليات فى بلدان العالم وفى غالبية الأقطار الإسلامية توجد جماعات وطنية ذات أديان خاصة بها. الطغاة على طول التاريخ بما فى ذلك تاريخ المسلمين حاولوا تطبيق أحادية دينية أو ثقافية أو أيديولوچية وهذا النهج ينافى واجبات النقل والعقل معا.

التعددية الدينية، والثقافية، والاثنية من نظام الكون كما أراده الله قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

كل مجتمعات الإنسان كونت لنفسها ثقافات، والثقافة هى شخصية المجتمع، وقد أحصى علماء الإنسان عشرة آلاف ثقافة حية. الثقافة تشمل المعتقدات الدينية واللغة والعادات والقيم الخلقية، كما تشمل الأدوات والحرف أى الثقافة المادية، فإذا تطورت وصارت كاتبة حاسبة وارتبطت بالحواضر كانت حضارة. فالحضارة ثقافة فى مرحلة أعلى من مراحل النضج. الأديان وهى من أهم مكونات الثقافات والحضارات بعضها محلى كالأديان الإفريقية، وبعض الأديان الآسيوية، وبعضها أديان عالمية كالأديان الإبراهيمية الثلاثة، والزردشتية، والهندوسية، والبوذية. كل حضارات الإنسانية فيها مكون دينى، والحضارات الإنسانية الحية فى عالم اليوم ثمان هى: الصينية، واليابانية، والهندية، والغربية، والسلافية، واللاتينية (أمريكا الجنوبية) والإسلامية، والإفريقية..

العالم اليوم فيه ستة مليار من البشر منهم مليار ومائتا مليون مسلم أى أن المسلمين يشكلون نسبة ٢٢٪ من سكان البسيطة، ثلث هؤلاء يعيشون فى دول غير إسلامية خاصة فى مناطق فى العالم: آسيا، أفريقيا، أوروبا، أمريكا.

إن من أهم سمات عالم اليوم أن الدولة النقية الحاوية لانتماء إثنى أو ثقافى أو دينى وحيد صارت كالفيل الأبيض.. المسلمون الذين يعيشون داخل دول غير إسلامية تبرز لديهم مشاكل فقهية عديدة تستوجب الاجتهاد الجديد فى مخاطبة مشاكل هؤلاء وهم يمثلون عدديا ثلث المسلمين فى العالم، كما أن كل الدول الإسلامية تحتوى على مقدار من التنوع الإثنى أو الثقافى أو الدينى أو خليطا بينها. فكيف يتم التعامل مع تلك الأقليات، وبعض دعاة الفكر التقليدى ينكرون التعدد فى أى شىء باعتباره نقيضا للتوحيد؟

نتحدث هنا من منظورين: **الأول**: الأقليات المسلمة فى دول غير إسلامية، **والثانى**: الأقليات الدينية والثقافية والإثنية داخل البلدان الإسلامية وكيفية التعامل معها.

الأقليات الإسلامية فى العالم

الأقليات الإسلامية فى مجتمعات غير إسلامية يعانون من مشاكل عديدة منها:

ـ خطر التذويب الحضارى والاندراج فى ثقافة المحيط، وما يؤدى له من بروز تيارات انكفائية ترفض التلاقح الطبيعى مع المجتمعات والتعايش السلمى داخلها.

ـ فى المجتمعات الغربية يعانون من ازدياد اتجاهات كراهية الأجانب.

ـ مشاكل الاجتهاد الفقهى الذى يتناسب مع بيئاتهم الحضارية والطبيعية.

ـ حصار المسلمين الموجودين خارج العالم الإسلامى باعتبارهم ظهيرا للإرهاب العالمى.

لا نستطيع أن نتحدث عن مستقبل المسلمين كأقليات دون أن نربط ذلك بموقف المسلمين فى العالم، ولا نستطيع أن نتحدث عن تحسين أوضاع الأقليات المسلمة فى العالم بمعزل عما يدور فى دولنا.

الأقليات فى بلدان المسلمين

إن الدول الإسلامية تحتوى على تنوع ثقافى ودينى ومذهبى وإثنى بدرجات متفاوتة. هنالك خياران للتعامل مع الأقليات: الإخضاع وهذا مستحيل بل جالب لكل أنواع الشر والضر والتدخل الأجنبى، أو التعايش وهذا ضرورى بل هو نهج إسلامى أصيل إذ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولا ينبغى أن يوجد إكراه فى المذهب من باب أولى. ولكى يتم تنظيم التعامل مع الاختلافات المذهبية والثقافية والدينية ينبغى على المسلمين مراعاة الشروط التالية:

أولا: الالتزام بالقطعى ورودا والقطعى دلالة من نصوص الوحى فى الكتاب والسنة وتحرير الاجتهاد فيما سوى ذلك. والاتفاق مع الآخر المذهبى على القطعيات والتسامح معه حول الاجتهادات.

ثانيا: الأحكام الإسلامية تقننها مؤسسات منتخبة مستهدية باستشارات فقهية فنية.

ثالثا: المواطنون غير المسلمين فى البلدان الإسلامية أهل عهد مواطنة على نمط صحيفة المدينة التى كتبها النبى (ﷺ). المواطنون سواسية فى عهد المواطنة. والتعامل

بينهم يقوم على ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وعلى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

رابعا: الشريعة الإسلامية واجبة التطبيق علما بأن هامش الالتزام الإسلامى واسع: يمتد من «الجهر بالكفر» لـ ﴿مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، إلى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ويمتد من ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] إلى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ويمتد من ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، إلى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] ويمتد من ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] إلى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ويمتد من تعليق أحكام الإسلام فى ظروف معينة خوف الفتنة ـ مثلا رفع الجزية عن نصارى نجران لأسباب سياسية، وتجميد الحدود فى عام الرمادة ـ إلى الالتزام الكامل بها. ويمتد من ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، إلى ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ويمتد من تخصيص النص بأسباب النزول أو بظروف معينة، إلى لا اجتهاد مع النص. التطبيق المطلوب الآن هو ذلك الذى يراعى حقوق المواطنة للآخرين والمغايرة الدينية، ويستصحب مستجدات العصر، ويشرع بوسائل ديمقراطية.

خامسا: التعامل مع ظاهرة العنف والتطرف الدينى يكون بإزالة المؤثرات التى أحدثته على الصعيد الداخلى: القهر، ولغة التطرف وتكفير الآخرين، يتم ذلك بالسعى نحو التحول الديمقراطى والعدالة الاجتماعية وأقلمة الحداثة بخطى ثابتة تشيع الحريات وتوفر الشفافية وتشيع العلم، وتقطع دابر القهر والعنف المضاد.

نحن اليوم نكون مع الآخرين أسرة دولية أصدرت معاهدات ومواثيق دولية تكفل حقوق الأقليات. ينبغى على الاجتهاد الإسلامى المتجدد مراجعتها للإفتاء بإلزاميتها للمسلمين وفاءا بالعهود».

***

الهوامش

١ ـ سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦م) انظر هامش : ١٥ ـ المقدمة .

٢ ـ ﴿لا ينْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

* ـ أبو حنيفة النعمان(٨٠- ١٥٠هـ/ ٦٩٩- ٧٦٧م): انظر هامش : * ـ المقدمة .

٣ ـ الإيدز هو مرض نقص المناعة المكتسب ويسببه فيروس الإيدز والإحصائيات العالمية للمرض مخيفة جدا، فالمقدر أن عدد الأنفس التى أزهقها الإيدز لمدة عشرين عاما منذ اكتشافه فى يونيو ١٩٨١م وحتى ٢٠٠١م هو ٢٢ مليون نسمة . كما أنه فى عام ٢٠٠٠ فقط حدثت ٥,٣ مليون إصابة جديدة بالإيدز بمعدل ١٤,٥٠٠ شخص فى الدقيقة . ويشكل الإيدز الآن خطورة أساسية تواجه بعض المجتمعات الأفريقية .

٤ ـ North-South : a program for survival : the report of the Independent Commission on International Development Issues [Brandt report] Cambridge, Mass.: MIT Press, 1980. ، رئيس اللجنة هو المستشار الألمانى فيلى برانت Brandt, Willy ، وقد كان له دور فى تطوير التعاون بين الكتلة الغربية والشرقية أيام الحرب الباردة وانتقل فى هذه اللجنة للعمل بين الشمال والجنوب، اشتهر التقرير باسمه، انظر الموقع

http://www.brandt21forum.info/BrandtReport.pdf

٥ ـ الصادق المهدى تحديات التسعينيات ص ١٣٨-١٤١ .

***